صلاة التوبة

"ايها الرب وسيد حياتي اعتقني من روح البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطّال، وأنعم عليّ انا عبدك الخاطىء، بروح العفة واتضاع الفكر والصبر والمحبة. نعم يا مَلِكي والهي هبْ لي ان اعرف ذنوبي وعيوبي وان لا ادين اخوتي فانك مبارك الى الابد، آمين".

تحتل هذه الصلاة مركزاً مرموقاً بين صلوات الصوم الاربعيني المقدس، لذلك يمكن تسميتها "الصلاة الصيامية" او "صلاة التوبة". والتوبة في مفهومها الكنسي تعني العودة الى الاحضان الابوية. هي انجذاب قوي نحو اللّه، تؤهل الانسان لاقتبال الملكوت السماوي. انها باب الرحمة المفتوح للذين يريدونه.

وضعت الكنيسة هذه الصلاة في الصوم المقدس لان مضمونها يحمل غنىً عظيماً للافكار والعواطف المقدسة المفسرة لحياتنا الروحية. ليس فيها شيء محشو زائد ومع هذا ليس فيها شيء منسي. انها صلاة مقتضبة تجتذبنا وتبني جسراً متيناً بيننا وبين اللّه وبيننا وبين اخوتنا المخلوقين على "صورة اللّه ومثاله".

نبدأ بتلاوة هذه الصلاة المنسوبة الى القديس افرام السرياني عشية بدء الصوم في خدمة صلاة الغروب المعروفة بصلاة الغفران ونكررها في سائر خدم الصوم المبارك. وهي تقال مصحوبة بسجدات (ركعات) ثلاث، والسجود تعبير صادق عن مشاعر الخضوع والاتضاع، لذا هو لائق وجدير باللّه وحده ويحمل معنى التوبة والندامة كما فعل الابن الشاطر عندما سجد لابيه نادماً طالباً المغفرة. يقول القديس باسيليوس الكبير "كل مرة نسجد فيها الى الارض نشير الى كيف احدرتنا الخطيئة الى الارض، وحينما نقوم منتصبين نعترف بنعمة اللّه ورحمته التي رفعتنا من الارض وجعلت لنا نصيباً في السماء". اما الاسقف اغناطيوس بريانتشانينوف (١٨٠٧ – ١٨٦٧) فيحثنا على السجود لانه بالاكثار من السجدات "يصل القلب الى حالة الاتضاع، ويكون الانسان في نشوة روحية عالية".

من يمارس هذه الصلاة بقلب نقي يقر بضعفه وبعدم اعتماده على قواه الشخصية مستدعياً نعمة اللّه لمساعدته متوسلاً الى الرب كي يحرره من امراضه الروحية الرئيسية ويعتقه من الرذائل ويمنحه الفضائل الالهية فلا يبقى للرذائل في نفسه جذور ويكون للفضائل مكان ثابت لا يتزعزع.

الطريق شاق، يتطلب جهاداً بطولياً، جهاد الصوم والصلاة : "هذا الجنس لا يخرج الا بالصلاة والصوم" (متى ١٧:٢١) كما يقول السيد. فلنحتمل ولنصبر لكي ننعتق من اهوائنا

الداخلية. بدء كل شيء ان يحفظ الانسان قلبه لانه من القلب تخرج افكار شـــريرة. يجـــب ان ننقي الداخل اولاً بحسب وصية الرب، ان ننقي داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجـــهما ايضاً نقياً (انظر متى ٢٦:٢٤). اللّه ينظر الى القلب، الى الموقف الداخلي ولاينخدع بـــهمتنا الخارجية. قد نأتي بالامور العظيمة ونحرق جسدنا دون ان نربح شيئاً.

"أيها الرب وسيد حياتي اعتقني من روح البطالة والفضول"

ان الانسان يعشق خطيئته، عاداته، هفواته، يتمرغ في الظلمـــة. فـــي هـــذا الزمـــن المبارك، يعود "بالصوم والصلاة" من غربته ويجعل الرب سيداً لحياته حتى يتمتـــع بالحيـــاة معه، راميا خطاياه كلها عند قدمي السيد مرنماً مع داود النبي "الرب يرعـــاني فـــلا شـــيء يعوزني" (مز ٢٢:١). ولكن عندما نريد ان ندخل الحياة الروحية وخاصة حياة الصلاة، نعلـن بدء المعركة، معركتنا مع اهوائنا. فالتجربة الاولـــى التـــي تعترضنـــا هـــي "روح البطالـــة والفضول". المرض الاساسي هو البطالة (الكسل) التي هي نوع من الانحطاط، "اساءة كبـــيرة نسيء بها لانفسنا" لان كل ساعة تذهب من دون عمل هي خسارة لا في الحيـــاة الحـــاضرة فحسب بل في الحياة الابدية ايضاً. انها تدفعنا الى "الاسفل" بدلاً من "الأعلـــى" لانـــها اصـــل الخطايا كلها. الكسل والخمول يجلبان لنا الفراغ، البؤس، الشقاء، الفساد. الرسول بولس، عالماً بخطورة هذا الداء، يظهر لنا في رسالته الثانية الى التسالونيكيين من اين يتولد، كاشـــفاً لنـــا اسبابه : "نوصيكم أيها الاخوة باسم ربنا يسوع المسيح ان تتجنبوا كل اخ يسلك بـــلا ترتيـــب وليس حسب التعليم الذي اخذه منا. اذ انتم تعرفون كيف يجب ان يتمثل لاننا لم نســـلك بـــلا ترتيب بينكم ولا اكلنا خبزاً مجاناً من احد بل كنا نشتغل بتعب وكد ليلاً ونهاراً لكي لا نثقـــل على احد منكم، ليس ان لا سلطان لنا بل لكي نعطيكم انفسنا قدوة حتى تتمثلوا بنا. فاننا ايضـــاً حين كنا عندكم اوصيناكم بهذا انه ان كان احد لا يريد ان يشتغل فلا يأكل ايضاً لاننا نسمع ان قوماً يسلكون بينكم بلا ترتيب لا يشتغلون شيئاً بل هم فضوليـــون فمثـــل هـــؤلاء نوصيـــهم ونعظهم بربنا يسوع المسيح ان يشتغلوا بهدوء ويأكلوا خبز انفســـهم" (٦:٣ – ١٢). يصـــف بولس الرسول الذين لا يعملون بـــ"فضوليين" مبيّناً شرورهم، لان الفضولي بعيد عن الـــورع، وقح في الكلام، سريع في الادانة وبالتالي عبد للكسل. كما اننا نجد الكتاب المقدس يتشدد ازاء البطالة باسم العمل وحده : فالكسول ليس له ما يأكله (انظر امثال ٤:١٣)، "لم يعد انساناً بـــل هو اشبه بحجرٍ قذر ... يزيل الدِمَن" (سيراخ ٢٢:١ – ٢) فأي شيء اسوأ من حالة الانســـان البطّال ؟ بولس الرسول نفسه يعمل ليلاً ونهاراً بتعب وكدّ لكي لا يثقل على احد. ويسوع قـــال عن نفسه وعن ابيه : "أبي يعمل حتى الآن وانا اعمل" (يو ١٧:٥). فهل يليق بنا ان نسترسـل

في البطالة ؟ العمل هو من المعطيات الرئيسية للوجود الانساني، فمن يعمل في هذه الحياة الوقتية سيستحق الطوبى في الحياة الابدية. بالعمل نطرد الكسل لاننا لا نعمل لسد حاجاتنا فقط وانما يجب ان نقدم من اعمالنا للفقراء، للمحتاجين، مؤمنين ان هذه التقدمة هي ذبيحة مرضية لدى اللّه. يؤكد آباؤنا الابرار ان العاطل عن العمل هو اسير الوف من الشياطين الشريرة. باختصار، "البطالة تتولد من الفضولية، والفضولية من الاختلال وعدم الاتزان، ومن هذا الاختلال يتولد كل شر". يقول القديس سيرافيم ساروفسكي : "حيث لا يوجد تعب لا يوجد خلاص". فلننتبه نحن الذين وضعنا يدنا على المحراث لئلا تقودنا البطالة الى التقهقر والضياع، "فروح البطالة والفضول" لص قد تمرّن في الخطيئة ومعلمه هو ذاك الذي يريد ان يسيطر على نفوسنا كل حين دون ان نشعر بوجوده، وهو ذاك الذي حاربه المسيح بصليبه المقدس. انه الشيطان الذي يوشوش لنا ان لا نصلي – لان اللّه يعرف ما نحتاج اليه – يوهمنا اننا متعبون بعد نهار شاق. يتخذ الوصايا الالهية حجة ويورد على ذهننا بمكر مقاطع من الانجيل المقدس كي يمنعنا ان نصرخ من اعماق قلوبنا "ايها الرب وسيد حياتي". فلنطلبنّ من الرب ان ينجينا من فخاخ العدو الغاش معتقاً ايانا من "روح البطالة والفضول" حتى لا نتنجس ونقع فريسة للكسل ونصبح ثقلاً على نفوسنا مشوّهين "مثال" الرب فينا. فلنسارع بدأب ان نكون نشيطين ومثابرين في اعمالنا الصالحة لكي يتمجد اسم الرب بنا ونواظب على تسبيحه حاملين دوماً في قلوبنا اسم المسيح "الكثير الحلاوة". ولا ننسَ ان "لا شيء يُكتسب بدون تعب" كما يقول القديس ثيوفانس الناسك.

الطريق صعب ويتطلب بطولة، المهم ان لا نيأس، واليأس من اخطر الامور لانه يسبب الموت للروح، فمتى دخل اليأس الى النفس يضيع نشاطها الروحي وتقع في التردد الداخلي. ما هو المطلوب في هذه الحالة ؟ ايمان راسخ بالسيد، تسليم كلي لمشيئته، وان نغير مجرى حياتنا وننكر ذواتنا "ان اراد احد ان يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (متى ١٦:٢٤). نترك الطريق الواسع وندخل من الباب الضيق، باب التوبة والتطلع الى وجه المخلص : الحياة العملية تتطلب منا جهدا، وعراكا والمثابرة الدؤوب في مزاولة الاختيار الحر لان الباب ضيق والطريق الذي يؤدي الى الحياة صعب "فالزمان الحاضر، كما يقول احد شيوخ دير فالامو، ليس وقت راحة او نوم، انه وقت نضال، انه معركة، صفقة، مدرسة، سفر. لذلك عليكم ان تبذلوا ذاتكم، ان لا تتخاذلوا، ان لا تبقوا في البطالة بل تكرسوا انفسكم للاعمال المقدسة". المطلوب ان نجدد كل يوم علاقتنا مع الله، من خلال صلاتنا الحية. "والصلاة هي العمل الاكثر صعوبة" كما يؤكد الاب اغاثون.

"ايها الرب وسيد حياتي اعتقني من حب الرئاسة والكلام البطّال".

ان البطالة واليأس هما اللذان يملآن حياتنا "بحب الرئاسة" أي الكبرياء الذي هو اول مانعٍ للصيام. لذا هيأتنا الكنيسة المقدّسة قبل بدء الصوم المقدّس باربعة آحاد بوضعها امامنا مَثَلَ الفريسي والعشار لكي تحثنا على رفض الكبرياء والعجب والتشامخ واقتلاعها من نفوسنا لنماثل تواضع العشار. يجمع آباؤنا القديسون ان الكبرياء اول الاهواء واشدها قبحاً لان بسببها سقط "كوكب الصبح" من السماء ودُعيَ شيطاناً، كذلك طرد آدم من الفردوس بسبب كبريائه. الكبرياء يظلم النفس ويحطّمها. انه متعدّد الانواع والصور، يفسد ايَّ انسان، مهما كان عمله، اذا تأصل فيه. فالحكيم يتكبّر بالحكمة والغني بثروته والخطيب بخطابته ... الكتاب المقدّس يحذّرنا من هذا المرض الفتّاك فـ "كل مترفّع القلب رجس عند الرب" (امثال ٥:١٦)، اللّه يلعن المتكّبر ويبغضه "انت انتهرت المتكبّرين" (مز ٢١:١١٨). المتكبّر لا يستطيع ان يجد الحكمة ، ينظر الى الناس من فوق، ظاناً نفسه انه من طينة تختلف عن طينة البشر، معتقداً انه اعلى منزلة واكثر صلاحاً وأوفر تقوى وعلماً وشجاعة من سائر الناس. يظن المتكبر ان كل الناس في خطأ وضلال لذا تدعونا الكنيسة ان نمقت التسامح وان نفرَّ من مفاخرته الرديئة كي لا نتعظم بصنائعنا ونتجبّر على قريبنا (انظر لوقا ١٠:١٨ – ١٤). "اول الكبرياء هو الخطيئة ومن تمسك بها فاض قبائح لذلك أنزل الرب بالمتكبرين بلايا غريبة ودمرهم تدميراً " (سيراخ ١٣:١٠). هذا المرض الخبيث مقاومته شديدة، لانه يصارع كل شكل وكل ترتيب ويدخل في كل الامور : في الكلام وفي الصوم وفي الصلاة و... لذا هو انحراف اساسي في علاقتنا بالآخرين وتفتيش عن اخضاعهم لنا. بكلام آخر نريد ان يصبح كل شيء اداةً لاكتفائنا الذاتي. نريد ان نكون اسياداً لنفوسنا بدل ان يكون الرب سيداً لحياتنا. فلننتبه من صنع ما نطلب فيه مدحاً من الناس "فلنحذر من شيطان العظمة وترفّعه المهلك الذي يجلب الموت علينا، قائلين مع القديس بولس الرسول :" لنا هذا الكنز في اوان خزفية ليكون فضل القوة للّه لا منا " (٢كو ٧:٤).

المتكبر يناقض كلام السيد الذي قال "بدوني لا تقدروا ان تعملوا شيئاً " (يو ٥:١٥) اذ يعتبر ان كل ما يحققه من الفضائل هو بقوَّته الشخصية ناسياً ان " كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة هي منحدرة من العلى من اب الانوار " (يع ١٧:١) لانه " ان لم يبنِ الرب البيت باطلاً يتعب البناؤون " (مز ١:١٢١). فمن يريد ان يجاهد حسناً ويتكلّل باكليل الظفر، عليه ان يسعى الى غلبة هذا "الوحش الكثير الوجوه " متذكراً دائماً القول : " وتسربلوا بالتواضع لان اللّه يقاوم المستكبرين واما المتواضعون فيعطيهم نعمة " (١ بطرس ٥:٥).

يعلّمنا آباؤنا انه "في قلوب المتكبرين تنشأ اقوال التجديف". فالكلمة تعبّر عن شخصيّة المتكلّم وتشترك في ديناميته لانها المحك الذي يسمح باختبار الانسان لتقدير قيمته، فالانسان يُختبر بكلامه " (انظر سيراخ ٤:٢٧ – ٧) وبما ان الكلمة تعبير اصيل عن الانسان فهي اداة سقوطه وتحطيم ذاته. فمحرّك اللسان هو القلب، وما يملأ القلب هو الذي يخرج الى الخارج بواسطة اللسان "الرجل الطيب من الكنز الطيب في قلبه يخرج ما هو طيب" (لو ٦:٤٥). فبدء كل شيء هو ان يحفظ الانسان قلبه (انظر امثال ٤:٢٣) لذا تدعونا الكنيسة لا ان نصوم فقط جسدياً بل روحياً ايضاً لان "الصوم الحقيقي هو ضبط اللسان والانفصال عن النميمة". لخّص يعقوب الرسول آفات اللسان بقوله "ان اللسان هو عضو صغير ويأتي بعظائم ... اللسان نار، وعالم من الإثم ... يدنّس الجسم كلّه ... يلهب دائرة عمرنا ... هو شر لا يُضبط مملوئ سماً مميتاً ... به نبارك اللّه الآب وبه نلعن الناس ... من الفم الواحد تخرج اللعنة والبركة" (يع ٣:٥–١٠) لذا يصرخ النبي "اجعل يا رب حارساً لفمي وباباً حصيناً على شفتي" (مز ١٤٠:٣)، لان الذي ينطق بالكلام البطّال يصدر الحكم العتيد على نفسه مسبقاً بشفتيه فكل "كلمة بطّالة يتكلّم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً " (متى ١٢:٣٦)، الانسان البطّال الكلمة لا يصلح لشيء، قلبه جاف، بصره فارغ ... صحيح اننا نرتاح الى الكلام والتحدّث بعضنا الى بعض لاننا بتبادل الحديث نبتغي التعزية بعضنا من بعض ونرغب ان ننعش قلبنا المتعب بمختلف الافكار، ولكن كثيراً ما يكون ذلك عبثاً وباطلاً. نحن لا نقصد ان نصمت ابداً، لان الكلام جائز ونافع اذا كان للبنيان. فالكلام المنطوق به في اوانه هو كنز ثمين ومجلبة للسرور "الكلام المنطوق به في اوانه تفاح من ذهب ونقوش من فضة" (امثال ٢٥:١١). لكن الرسول يعقوب يحثنا ان نكون بطيئين في الكلام : "اذاً يا اخوتي الاحباء ليكن كل انسان مسرعاً في الاستماع مبطئاً في التكلم مبطئاً في الغضب" (يع ١:١٩).

علينا كمؤمنين ان نتكلم بوعي ليكون كلامنا لمجد اللّه ومنفعة الناس وان صدر عنا كلام بطّال فلنتب عنه مصلّين مع النبي ان يجعل الرب حارساً لفمنا لتصبح كلمتنا حية فعالة، صارخين مع القديس افرام "ايها الرب وسيد حياتي".

"وانعم عليّ انا عبدك الخاطىء **بروح العفة واتضاع الفكر**".

تحدثنا سابقاً عن اهم معوقات الحياة الروحية وهي "البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطال" التي هي حواجز علينا ازالتها بمعونة الرب وجهادنا الشخصي. حديثنا الآن عن الادوية النافعة" لهذه "الامراض السمجة". فالشيء الوحيد الذي يحارب "البطالة والفضول" هو "العفة". والكلام عن العفة يستلزم من الانسان فطنة وطهارة لانها ليست فضيلة خيالية مع

انها نادرة وسريعة العطب، تُفقد بسهولة وتُسترجع بصعوبة. نحن لا نقصد العفة الجسدية فقط ولكن العفة التي هي طهارة الفكر والقلب وبساطتهما واتجاههما بكليتهما الى اللّه. عندما نجرَّب بتشتيت الفكر ونضطرب لافكار غريبة تبيد العفة هذه الاضطرابات وتجعلنا ننظر الى كائن الهي سرمدي هو يسوع المسيح. يقول ترتليانوس (احد آباء الكنيسة الذين عاشوا في القرن الثالث) ان العفة هي "زهرة الآداب المسيحية". فالعفيف يكافأ بانه يعاين اللّه : "طوبى لانقياء القلوب فانهم للّه يعاينون" (متى ٥:٨) لان الطهارة القلبية تقرّبنا الى اللّه الذي ينظر الى النفس العفيفة فيراها جميلة لا عيب فيها "مشرقة كالشمس، بهية كالقمر". الوصية واضحة تماماً لمعاينة الرب، لا بدّ من صفاء القلب والضمير لينعكس نور المسيح فينا. يعلّمنا آباؤنا القديسون ان نحب ونعمل جاهدين لنقتني طهارة القلب والجسد : "احرص على طهارة جسدك وسلامة قلبك فانك إن تحققتَ من نوالهما ابصرتَ اللّه ربك". القديس باسيليوس الكبير يقول "لست اعرف امرأة ومع ذلك لست عفيفاً" ليؤكد لنا ان الطهارة الداخلية هي الاساس ويعلّمنا ان العفة لا تُقتنى بالابتعاد عن النساء بمقدار ما تُقتنى بتقديس النفس وتطهيرها. فاللّه يسكن في قلوبنا ما دامت مقدّسة طاهرة عفيفة : "اما تعلمون انكم هيكل اللّه وروح اللّه يسكن فيكم. ان كان احد يفسد هيكل اللّه فسيفسده اللّه لان هيكل اللّه مقدّس الذي هو انتم" (اكو ٣:١٦-١٧). المطلوب ان نحافظ على طهارتنا الداخلية والخارجية ايضاً. نشير هنا ان في الزواج عفة ايضاً، لان الزواج سر مقدّس ينجزه الروح القدس على يد الكاهن بين مؤمنين يتراضيان على العيش المشترك الطاهر حتى الموت، ويتحدان بجسد الرب ودمه المقدّسين اللذين يؤثقان روابطهما. علينا ان لا نحصر كل اهتماماتنا في صومنا الجسدي فقط وانما ايضاً في الانتباه الى افكارنا وقلوبنا اي ان ننقي الداخل اولاً لكي نرتقي الى مستوى الطهارة والنقاوة الحقيقيتين، وهذا يتطلب انسحاق قلب وصلوات كثيرة مع سجدات وقراءات روحية.

ولكن لا يمكننا ان نمتلك العفة ان لم نقتن التواضع الحقيقي في قلوبنا. يقول القديس ذياذوخوس اسقف فوتيكي "صعب هو اقتناء التواضع، فبقدر ما هو عظيم بقدر ما يتطلب مجاهدات ليتحقق"، لانه "بامكاننا اضعاف الجسد بسرعة بواسطة الكثير من الاصوام، لكنه ليس من السهل تذليل النفس حتى تبقى في التواضع، لان هذا يستلزم الكثير من الوقت" كما يقول القديس سلوان الآثوسي.

بداية الطريق الى التواضع هي معرفة النفس وتمييز الهفوات والخطايا المعششة في قلوبنا. نحن بحاجة ان نكون مستعدين ان نقول "عفواً لقد اخطأت". نحن بحاجة ان نعرف ضعفاتنا وآثامنا ... نحن بحاجة الى تواضع العشار ... التواضع هو اول الفضائل ومدخل اليها وهو بدء التوبة الحقيقية، والتجرد والتقشف وانسحاق القلب ... نابع من التواضع. انه

اصل كل خير وينبوع كل فضيلة. هو اول الدرجات في سلم الفضائل كما يعلمنا القديس يوحنا السلمي. انه الوفقة الخاشعة التي يمكننا ان نقفها امام الله لان "كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع" (لو ١٤:١٨). ورفع النفس يعني اعتبار الانسان ذاته فوق قياس البشر، ووضع النفس اي احتقارها هو ارتفاع في نظر السيد. هذا هو تعليمه "تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب"(متى ٢٩:١١). نتعلم التواضع بتأملنا بيسوع الذي احتمل العار والشتم والصلب من اجلنا، نتعلمه عندما نقيس كل شيء به ونعيد كل شيء اليه. فبدون المسيح مستحيل ان يكون تواضع. فالمتواضع انسان يحمل السلام والفرح والمحبة "القلب المتخشع المتواضع لا يرذله الله"(مز ١٧:٥٠). حتى نخلص علينا ان نتضع، ان ننسحق، ان نخرج من انانيتنا، من "الانا Le Moi" ان نسلم ذواتنا الى مشيئة الرب، ان نحسب انفسنا "ترابا ورمادا" كما فعل ابراهيم عندما نظر الرب ودعا نفسه "ترابا ورمادا" (تك ٢٧:١٨). والتراب يدوسه الناس. القديسون كلما اقتربوا من الله رأوا انفسهم خطأة بطالين ولهذا استحقوا الطوبى والمجد: "ابراهيم استحق بتواضعه ان يدعى صديق الله وبولس استحق بتواضعه ان يختطف الى السماء..." يقول القديس اينوستيسيوس الروسي.

يسوع نفسه الذي هو "في صورة الله لم يحسب خلسة ان يكون معادلا الله"(فيليبي ٦:٢) ولم يشأ ان يظهر على الارض ببهاء مجد لاهوته وقوة جبروته، بل "اخلى ذاته آخذا صورة عبد" وشق لنا بحياته وتواضعه ومسلكه طريق القداسة ليقودنا في معارج الكمال. فبعد ان اتضع المسيح وصار انسانا "رفعه الله ومجده" و"وهب له اسما يفوق كل اسم". ذروة تواضع السيد انه اقتبل الصلب والموت والدفن. "بتواضعه ارتفعت حكومته" مع انه ينبوع الفرح والحياة والقيامة.

فلننتبه لذواتنا محافظين على عفة قلبنا وجسدنا ليكون بهيا لله ومقبولا قبولا حسنا ولنقتني التواضع لانه "يكسر جميع حيل الشيطان" ولننظر الى ذواتنا هاتفين مع العشار بانسحاق قلب متعلمين تواضعه صارخين "يا يسوع ارحمني انا الخاطىء".

"وانعم علي بالصبر والمحبة".

في هذه الصلاة نطلب من الرب ان يهبنا الصبر. الانسان بطبيعته ميال الى التذمر، يستسلم للضجر واليأس، يحزن كباقي الناس "الذين لا رجاء لهم"، اما المسيحي الحقيقي فيجاهد كي يحتمل الضيقات والمصائب التي تواجهه لان الدواء الوحيد ضد كل الشرور هو الصبر. والصبر يعلمنا اياه يسوع الذي يريد خلاص الخطأة، لذا يلوم تلاميذه لعدم صبرهم ولميلهم للانتقام والشر.

الكتاب المقدّس يحثنا على اقتناء فضيلة الصبر : " يا بنيّ، ان اقبلت لخدمة الرب، فأعدد نفسك للمحبة، ارشد قلبك واصبر ولا تكن قلقاً في وقت الشدة، تمسك به ولا تجدّ لكي يرتفع شأنك في اواخرك. مهما نابك فاقبله وكن صابراً على تقلّبات حالك الوضيع، فان الذهب يُمتحن بالنار والمرضيين من الناس في اتون الذل". (ابن سيراخ ٢:١-٥). رب قائل : انني منذ زمن طويل اتألم متضايقاً ولم يبقَ شيء انتظره سوى الموت.

الكنيسة المقدسة تقول لهذا الانسان اليائس ان يتأمل ماذا حصل لأيوب الصدّيق في العهد القديم اذا احتمل محنه في ثبات لا يتزعزع. اللّه يسمح بهذه المتاعب والضيقات بهدف تجربة الانسان، لان الفضيلة تبرز بالصبر لا بالضجر، والاحزان والتجارب نافعة للانسان لانها تختبر النفس وتثبتها ان احتملت بشجاعة وصبر. على الانسان ان ينتظر بجلد رحمة الرب لان "من يصبر الى المنتهى فهذا يخلص" (مر ١٣:١٣). نحن نعلم ان المسيح "كان يجب ان يتألم لكي يدخل الى مجده" (لو ٢٦:٢٤). علينا، اقتداءً بالسيد، ان نحتمل بشجاعة كافة المحن لكي نشترك في آلام المسيح ونتمجد معه (فيليبي ١٠:٣). القديسون، بعد صبر كثير وشدائد وضيقات وآلام ظهرت حياة المسيح في اجسادهم فتمجدوا. نحن ايضاً علينا ان نصبر على كل شدة وعلى كل حزن يأتي من الشريرلكي نتغلّب عليه ونرث الحياة الابدية.

الا انه ليس هناك من صبر حقيقي دون محبة لان محبة اللّه في الصالحين تحتمل كل شيء، ومن يعطينا الصبر هو عينه يهبنا المحبة. "اللّه محبة ومن يثبت في المحبة يثبت في اللّه واللّه فيه" (١يو ١٦:٤). هذه هي ميزة المسيحية وهذه هي بشارة المسيح التي عهد الينا بنشرها "لأن اللّه محبة" (١يو ٨:٤) و"لأن الآب نفسه يحبكم" (يو ٢٧:١٦). فمحبة اللّه هي محبة كاملة لكل واحد منا، يحبنا كما نحن، محبة سامية : "هكذا احب اللّه العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية" (يو ١٦:٣). محبة غير محدودة وغير منتظرة. احبنا اللّه الى درجة لا نتصورها، وهذا هو سر اللّه، سر كان فيه عطاء كامل للذات وان سمح بالعذاب والمحن فلانه يحبنا "وانه بضيقات كثيرة ينبغي ان ندخل ملكوت اللّه" (اعمال الرسل ٢٢:١٤). اللّه لا يحبنا كما الأم التي تظن انها تحب ولدها فتعطيه ما يريد وتوفر عنه العذاب.

الوصية الاساسية في الانجيل هي المحبة التي لا تعرف حدوداً ولا تميز بين انسان وآخر وشعب وآخر وتشمل حتماً الاعداء : "سمعتم انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك، واما انا فأقول لكم أحبّوا اعداءكم، باركوا لاعنيكم، احسنوا الى مبغضيكم، وصلّوا لاجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم" (متى ٤٣:٥-٤٤). المحبة المسيحية فضلا عن شموليتها، تدعو الى البذل والعطاء بدون انانية، فهي تساوي القريب بالذات : "وصية جديدة انا اعطيكم ان تحبّوا

بعضكم بعضاً، كما انا احببتكم تحبّون انتم ايضاً بعضكم بعضاً" (يو ١٣:٣٤). المحبة في نظر يسوع ليست فقط تقديم ما نملك او هي عواطف ومشاعر بل هي تقديم الذات، ان نعطي نفوسنا للآخرين . "أنْ أُحب يعني أن أموت" يعلّمنا القديسون. "أن نحب بمحبة المسيح هو ان ندخل في حياتنا الشخصية حياة العالم بأسره، ان نأخذ على عاتقنا شر العالم وكأنه شرنا نحن" يقول الاب صوفرونيوس.

عندما سأل علماء اليهود يسوع عن اعظم الوصايا بنظره، اجابهم بوضوح قائلاً "احبب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الاولى. وثانية مثلها هي تحب قريبك كنفسك. ليس وصية اخرى اعظم من هاتين" (مر١٢:٣٠-٣١). يقول المغبوط اوغسطينوس "ان حب اللّه اول في ترتيب الوصية وحب القريب اول في تنفيذها". والقريب هو كل انسان اياً كان عنصره ودينه وافكاره.قريبي هو من اصادفه على طريقي، واتبين حاجته واخدمه بما عندي من امكانيات. فعلى قدر اتحادنا بالقريب ومحبتنا له يكون اتحادنا باللّه ومحبتنا له. "ان قال احد اني احب اللّه وابغض اخاه فهو كاذب لان من لا يحب اخاه الذي ابصره كيف يقدر ان يحب اللّه الذي لم يبصره. ولنا هذه الوصية منه ان من يحب اللّه يحب اخاه ايضاً (١يو ٤:٢٠-٢١). ولكن المحبة باطلة ان لم يرافقها التزام عملي وحياتي لانها ليست بالقول بل بالعمل. انها خدمة وتضحية وعطاء. فمن يحب ضمن حدود لا يحب حقاً. "احبّوا اعداءكم" يقول الرب، لان "محبة الاعداء هي حجر الزاوية في الانجيل، الدواء لكل علة، المقياس لكل ايمان حقيقي" كما يؤكد الاب صوفرونيوس. قد يشعر الانسان ان محبة العدو امر صعب. صحيح، لكنه غير مستحيل، وقد قام يسوع به اولاً اذ لم يعتبر يهوذا خائناً بل دعاه صديقاً" (متى ٢٦:٥٠) وهو الذي شُتم من اليهود وجُلد وتحمّل العار وصُلب ومع ذلك قال "ابتاه اغفر لهم"(لو ٢٣:٣٤). المبحة قمة الفضائل وثمار كل مجهود " ولا قيمة في عين اللّه لفضيلة لا تحمل طابع المحبة. وهي تفوق العدالة والعبادة والصوم والصلاة" كما يقول احد الآباء.

المواهب الالهية نِعَمٌ يهبنا اياها الرب المخلّص والقائم من بين الاموات نتيجة طلبنا اياها بايمان حار وعميق. فمتى زرع هذا الاله المحب البشر الفضائل فينا كروح العفة واتضاع الفكر والصبر والمحبة، يكون قد غسلنا من خطايانا، ونتيجة هذا الغسل الالهي يعي المؤمن كم هو صغير امام عظمة اللّه، وكم هو متمرّغ في الماديات ومتعلّق بها. لهذا يرجو المؤمن اللّه ان يعطيه نعمة اخرى وهي معرفة ذنوبه وخطاياه وبهذا لا يدين اخوته لانه تحت القضاء ذاته "فالذي يعرف خطاياه اعظم من الذي يقيم الموتى الا ان الانسان ميال

بطبعه الى معرفة كل الاشياء حتى اتفهها لكنه لا يريد ان يعرف ذاته مع انه يحبها اكثر من كل شيء، وفي كل شيء يفتش عن نفسه فقط. لماذا ؟ لان معرفة الذات صعبة تتعب الضمير، تتطلّب شفافية، خروجاً من "الانا".

كما نطلب من الرب ان يساعدنا كي لا ندين اخوتنا لان المؤمن لا يمكنه ان يدين احداً، لانه يرى ذاته اصغر من الكل. فكما ان الام التي لديها ابن مشوّه لا تمقته ولا تبتعد عنه، بل تهتم به مسرورة، هكذا علينا ان نحيط بالآخرين، ان لا ندينهم بل نصلحهم ان امكننا حتى يقتربوا هم ايضاً من المسيح. "لا تدينوا لكي لاتدانوا". فما نفع الامتناع عن الاكل والشرب ان لم نمتنع في الوقت نفسه عن الحقد والبغض والاحتقار والادانة ؟؟ يبدأ الصوم عندما نترك الآخر وشأنه، عندما ندخل الى اعماق ذواتنا وننقي قلبنا بنعمة المسيح حتى يكون مستعداً لاستقبال السيد القائم. الا جعلنا الرب جميعاً اهلاً لاستقباله في هذه المواسم المقدّسة، وللسجود لقيامته المقدّسة، وليكن نور قيامته هداية لنا يلهمنا الصالحات حتى نكون نحن ايضاً نورانيين على مثاله له المجد الى ابد الدهور آمين.